دلالة المكان في الشعر الجاهلي

د. عمار بن لقريشي جامعة محمد بوضياف/ المسيلة
أ. معمري فواز جامعة محمد بوضياف/ المسيلة

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى الكشف عمّا يحمله المكان من رموز ودلالات، يمكنها المساهمة في عملية التواصل بين القارئ والنص، وكذا إيضاح أهمية هذا العنصر المشارك في عملية بناء النص الأدبي عامة، والنص الشعري العربي القديم خاصة، وقد اتستدعى ذلك تتبع الخطوات المنهجية التالية:

في البداية حاولنا تقديم مفهوم للمكان لغة واصطلاحا، ثم دراسة الأبعاد التي دل عليها المكان في الشعر الجاهلي، كالأبعاد الاجتماعية والنفسية، وتجليات ذلك في النص الشعري الجاهلي.

الكلمات المفتاحية: المكان، الطلل، الديار، البيئة، الحيز، الفضاء، الموضع.

Summary:

This article seeks to reveal what holds the place as symbols and connotations that can contribute to the process of communication between the reader and the text, as well as to clarify the importance of this co-operation element in the construction of literary text generally, and also the importance of the ancient poetic Arab text especially. The steps of this article have been explained below:

In the beginning we are trying to introduce the concept of the place (language and idiomatically), then study dimensions indicated by the place in the pre-Islamic poetry, as social and psychological dimensions, and its impact on the pre-Islamic poetic text.

Key words:

place, ruin, home, environment, area, space, position.

تمهيد:

يعدّ المكان إحدى العناصر والمكونات الأساسية والمهمة في العمل الأدبي، وذلك لما يحمله من أبعاد جمالية وفنية تسهم في عملية وبلورة مجرى الأحداث وبناء الشخصيات، فالمكان لا يقف في كونه حيزا أو مجالا تتحرك فيه الشخصيات فحسب بل

يتعدى إلى أبعد من ذلك؛ إذ أصبح يحمل دلالات وإيحاءات تشير إلى القصد والمعنى الذي يحتويه النص سواء كان هذا النص شعراً أم نثراً، وبصورة أخرى أصبح وسيلة تعبيرية تعكس لنا العلاقة القائمة بينه وبين الإنسان.

من هذا المنطلق كان حضوره في النصوص الأدبية خاصة منها الشعرية حضورا طاغيا فالمتصفح للشعر العربي يلاحظ مدى ارتباط الشاعر ببيئته وتأثره بها، فكان يأخذ أشكالا وصورا متعددة في ذهنية صاحبه، تكشف لنا عن المعاني التي يحملها هذا العنصر في توليد القيم الإنسانية.لذلك كان المكان بالنسبة للشاعر أرضا خصبة للتعبير عن ما يجول في خاطره ومشاعره مما جعله يتحول إلى غرض خاص لتلبية الدواعي والمواقف الكامنة في نفسيته، يرسم فيه أبعاده الاجتماعية والنفسية التي تحمل في طياتها معالم ودلالات مختلفة تتم فيها عملية التذكر والتخيل التي تجعل القارىء يتعرف على العلاقة القائمة بين المكان والشاعر؛ فالشخصية لا يتحقق وجودها الفعلي إلا بحضور ووجود هذا العنصر الذي يبعث فيها الحركة والاستمرارية من جهة ويضفي عليها سمات جمالية من جهة أخرى. فكان ارتباط الطلل بالشعر الجاهلي ، صلةً لا تنقطع ولا يمكن الفصل بينهما؛ فحديث الشعراء عنه يكشف عن ذلك، سواء أكان الوقوف به عابرا، أم حاول الشاعر فيه استقصاء تفاصيل الديار التي عفا عليها الزمن. غير أن ما نلاحظه على هذا الوقوف، أنه ليس وقوفاً عادياً بل يشير إلى مجموعة من المعاني تأسست عليها حياة العرب، عبّر فيها الشاعر العربي عن قيم ومبادئ دافنة في نفسه ووجدانه، فكانت وسيلة تشير إلى العلاقة الحميمة التي ربطت الإنسان العربي بدياره.

فما مفهوم المكان في اللغة و الاصطلاح؟ وما أبعاده وتجلياته في النص الشعري الجاهلي؟

1- مفهوم المكان: (لغة - اصطلاحاً)

-لغة: جاء في لسان العرب" : المكان الموضع والجمع أمكنة كقذال وأقذلة وأماكن. قال ثعلب: يبطل أن يكون مكاناً فعالاً؛ لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك؛ فقد دل هذا على أنه مصدر من كان موضع منه، و(مكّن) له في الشيء: جعل له عليه سلطاناً"1. فأبن منظور

عدّلفظة (المكان) محتواةً في مادة (مكّن) الدالة على الموضع والجمع. ويذهب الزبيدي إلى أن المكان أوسع وأشمل، فهو عنده " الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض وهو اجتماع جسمين حاوٍ ومحوي ، وذلك ككون الجسم الحاوي محيطاً بالمحوي"2.

لقد أعطى الزبيدي مفهوماً أوسع للمكان، بحيث عدّه الموضع الحاوي للأشياء والأجسام الموجودة والمتعلقة بهذا المكان.

- اصطلاحاً:

ظهرت أهمية المكان عند كثير من الباحثين القدماء والمحدثين، وذلك لارتباطه بالإنسان من جهة، ووجوده في العديد من المجالات والميادين المعرفية والعلمية من جهة أخرى. ويعد ألفيلسوف اليوناني (أفلاطون) أول من صرح به اصطلاحياً، وهذا ما ذهب إليه حسن مجيد الربيعي إلى أن "أول استعمال اصطلاحي للمكان في الفلسفة قد صرح بهأفلاطون، إذ عده حاوياً وقابلاًللشيء"3كما يتفق أرسطو مع أفلاطون في التصور العام للمكان من حيث الوجود و الكينونة فالمكانعنده "موجود مادمنا نشغله ونتحيز فيه،وكذلك يمكن إدراكه عن طريق الحركة والتي أبرزهاحركة النقلة من مكان إلى آخر، وهو مفارق للأجسام المتمكنة فيه وسابق عليها ولايفسد بفسادها".4

و يعرف الباحث السيميائي(لوتمان) المكان بقوله:" هو مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر أو الحالات أو الوظائف أو الأشكال المتغيرة، تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل: (الاتصال، المسافة ..الخ). و يمثل المكان إلى جانب الزمان الإحداثياتالأساسية التي تحدد الأشياءالفيزيقية، فنستطيع أن نميزفيمابينالأشياء من خلال وضعها في المكان، كما نستطيع أن نحدد الحوادث من خلال تأريخ وقوعها في الزمان."5

من هذا التعريفيتضح أن المكان كل ما يحتوي الأجسام والأشياء؛ أي أنه غير الفراغوهو ما جعله يتميز بصفة الاحتواء، وهو يتحدد بعلاقاته ومفاهيمهالمكانية مثل (أعلى، أسفل متصل، داخل، خارج)، هذه المفاهيم التي تتحول بدورها إلى وسيلة من وسائل وصف المكان، فتكسبه معاني جديدة.

كما فرق "حسن بحراوي" بين أمكنة الانتقال وأمكنة الإقامة" أما أماكن الانتقال فتكون مسرحاً لحركة الشخصيات وتنقلاتها، وتمثل الفضاءات التي تجد فيهاالشخصيات نفسها كلما غادرت أماكن إقامتها الثابتة، مثل: الشوارع والأحياء والمحطات وأماكن لقاء الناس خارج بيوتهم كالمحلات والمقاهي، وذلك بناء على قاعدة الاشتقاق، يشتق من التعارض الأصلي الأول انتقالإقامة تقاطباتفرعية مشتقة، حيثيولد من أمكنة الإقامة تقاطباتبين أماكن الإقامة الاختيارية وأماكن الإقامة الإجبارية مثل: المنزل مقابل السجنوتقاطبات أخرى بين أماكن الإقامة الراقية مثل: القصور ، الفيلات الأكواخ ، مدن"6

إذن فحسن بحراوي يذهب إلى أنه يوجد نوعان من الأماكن، فهناك أماكن للإقامة (اختياريةإجبارية)، وأماكن للإنتقال، مثل الشارع، والمحطات، والمقاهي....الخ.

كما يعدّ المكانإحدى الأسس والدعائم في إنشاء العمل الادبي؛" فالأدب الذي يكتسب العالمية هو ذلك الأدب الذي يستطيع أن يتبناه الإنسان ويجد فيه خصوصيته ، ومثل هذا الأدب يشق الطريق إلى العالمية ولكنه يفعل ذلك عبر ملامح قومية بارزة وقوية أحدها المكانية"7.فتاريخ المكان تاريخ عريق في الشعر العربي، تناقلته الأجيال عبر العصور، وأعادت صياغته على نحو من استلهام التراث المتجدد في روح المجتمع، فقد أصبح الشعر الذي يتعلق بالمكان فكراً للمجتمع يجري في وجدان الأمة جريانه على الألسنة.والمتصفح لشعر العربي القديم – وخاصة منه الشعر الجاهلي – يجد أن المكان حظي باهتمام الكثير من الشعراء أنذاك، وذلك لاحتلاله مكانة مرموقة وكبيرة في حياتهم الاجتماعية والنفسية.

2- الأبعاد الاجتماعية والنفسية في الشعر الجاهلي:

أ- البعد الاجتماعي:

يُمثل البعد الاجتماعي العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الشخصيات وقيمهم وتقاليدهموطبائعهم ومستوى معيشتهم ، وما يعترضهم من مشكلات وقضايا. فكان الشعر بمثابة الوسيلة التي تنقل أحاسيسهم،وطبائعهم، وتفاصيل حياتهم،وهو في ذاته فنإنساني يقوم على توقّدالإحساس بالجمال، ووسيلةللتعبير عنه، وهذا ما نجده عند

الشاعر الجاهلي، الذي قدم وصفاًللطلل في أجمل ما أبدع شعرياً ، فعندما " تفتح سفر الشعر العربي القديم يبرز الطللشامخاً كأنه السمة البارزة التي تميز القصيدة العربية القديمة، فالقصيدة التي تخلو من هذه المقدمة هيقصيدة مبتورة غير مكتملة عارية لم تلبس الثوب الفني المعهود"8.لأنهم وجدو في الطلل مفتاحاًيفتحون به قصائدهم، وعاملاً تتحرك به النفس في كنف الحياة. فوظف الشاعر الجاهلي المكان توظيفاً اجتماعياً، ليصور طبيعة الحياة الاجتماعية السائدة في تلك الفترة؛ فكان الشاعر يستدعي المكان ليبين الحالة الاجتماعية التي كان يعيش فيها، سواء بالانتماء لمجتمعه أو قطع الصلة والتمرد عليه. فهذا الشنفري مثلاً قد قطع الصلة بالمجتمع والمكان الذي كان يعيش فيه واستبدلهبمكان آخر، يمتاز بالوفاء والسكينة، فيقول:

" أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُـــم ....فَإني إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْلَأَمِيـــلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الحاجَاتُ واللّيْلُ مُقْمِرُ .... وَشدَّتْ لِطيَّاتٍ مَطايَا وأرحُـــلُ
وَفي الأَرْضِ مَنأى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذى ....وَفيهَا لِمَنْ خَافَ القِلى مُتَـعَزَّلُ
لَعَمرُكَ مَا في الأَرضِ ضِيقُ عَلَى امْرِئٍ ... سَرى رَاغباً أَو رَاهِباً وَهْوَ يَعْـقلُ
وَلي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيدُعَمَـــــــلَّس .... وَأَرقَطُزُهلُولُ وَعَرْفَاءُجَيْـــأَلُ
هُمُالأَهْلُ لا مُسْتَودَعُ السِّر ذائِـعُ....لدَيهِمْ ولاَالجانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ"9.

يأمر الشاعر قومه وأهله بالنهوض والانصراف عنه لإهمالهم له " فهو يعيش بين قطبين: فردية تدفعه إلى رفع كل ضغط وتثبيت لحقوقه الدائمة (الأنا) اتجاه حقوق الجماعة، ويتعلق من ناحية بجماعته بصورة عميقة وذاتية قد تصل حد التضحية بالنفس"10.

ويقول أيضاً:

" وباضِعةٍ حُمْرِ القِسيِّ بعَثْتُهـــــــاَ.... ومَنْ يَغزُ يَغنمْ مرَّةًويُشَمَّـــــــتِ
خرجْناَ مَنْ الوادي الذي بينَ مِشْعَـــلٍ....وبينَ الجَبَا هيهاتَأنشَأَتُسُـــربَتي
أُمَشِّي عَلى الأَرضِ التي لنْ تَضُرَّني ....لأنكِي قوماً أو أُصادفَ حُـــــمَّتي
أُمَشِّي على أينِ الغُزاةِ وبُعدِهـــــــا .....يُقَرِّبُني مِنهَا رَواحِي وغُـــــدْوَتي"11.

تتضمن هذه الابيات قضية الثأر التي قام بها الشنفرى بعد مقتل والده من طرف حزام بن جابر، وهي الغاية، والهدف الذي جعله يخرج من الوادي بعد أن توقف فيه، واستذكر ما كان فيه من علاقة حميمية بينه وبين شخصٍآخر.

لكن نجد في الضفة الأخر من الشعراء من يبكي ويتحصر على المكان والمجتمع الذي كان يعيش فيه، ومن هؤلاء عبيد الأبرص الذي يبكي على ديار بني سعد من بني أسد الذين أبادهم الغسانيون ويرثيهم:

" لِمَنْ طَلَلٌ لم يَعفُ مَنْهَ المَذنِبُ .... فَجَنْبَا حِبرٍّ قَدْ تَعفَّى فَواهـبُ
دَيارُ بَني سَعْدِ بْنِ ثَعْلَبةَ الأَولى .....أذاعَ بِهِمْ دَهرُ عَلى النَّاسِ رَائِبُ
فأذهَبَهُمْ ماَ أذْهَبَ النَّاسَ قَبلَهُمْ ....ضِراسُ الحُروبِ وَالمَنايا العَوَاقبُ
ألا رُبّ حَيٍّ قَدْ رأيْنا هُنالِكُـــمْ.....لَهُمْ سَلفُ تَزوَرُّ مَنْهُ المقانبُ
فَأقْبلْ عَلى أفْوَاقِ مَا لَك إنّمَـا .....تَكلّفْتَ مِلْ أشّياء ما هُوَ ذَاهِبُ"12.

ويقول أيضاً:

"لِمَنِ الدَّارُ أقْفَرتْ بِالجَنابِ .... غَيْرَ نُؤْيٍ وَدِمْنَةٍ كَالكتَابِ
غَيَّرتْهَا الصَّبَا وَنَفْحُ جَنُوبٍ.....وشَمالٍ تَذْرُو دُقَاقَ التّرَابِ
فَتَراوَحْنَها وَكلُّمُلثٍّ.....دَائمِ الرّعْدِ مُرْجَحِنٍّ السَّحابِ"13.

الشاعر في هذا الموضع أنكر الديار، وأخذ يتساءل عن أهلها الذين تركوها وهجروها " فلم يبق من آثارهم سوى الحفر التي كانت تمنع السيل عن خيامهم، وآثارهم التي عليها الرياح فجعلتها كالكتاب في استوائها"14.

ويذهب البعض الآخر إلى تصوير حاله ورحيل الأهل عن المكان، فهذا لبيد بن ربيعة " يعلن عن توحش الديار، ويحدد مكانها بمنى"15. فيقول:

"عَفتِ الدِّيارُ مَحلُّهَا فَمُقامُها ....بِمِنّى تَأبَّدَ غَولُها فَرجَامُهَا"16.

يتكلم الشاعر في هذا البيت عن مكة التي هجرها أهلها، فأصبحت مكاناً للوحوش بعد أن كانت تجمع الناس في الشهور الحرم، فانقطعت الصلة بينمهم بسبب حرب الفجّارمن جهة والرحيل والبعد عن تلك الديار من جهة أخرى.

إن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون معيشة بدوية تتميز بالبساطة والحرية، فعاشوا في الصحراء بكل تقلباتها وتغيراتها، فكانت ملجأً لهم، يصارعون مخاطرها، والاعداء الذين يتربصون بهم. يقول تأبط شراً:

" يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسِي بِغَيْرِهَـــــا ....جَحِيشاً وَيَعْرَوْرَى ظُهُورَ الْمَهَالِكِ
وَيَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ مِنْ حَيثُ يَنْتَحِي ....بِمُنخَرِقٍ مِنْ شَدِّهِ الْمُـــتَـــدَارِكِ
إذا خَاطَ عَيْنيهِ كَرَى النَّوْمِ لَمْ يَزَل....لهُكَالِىءُ مِنْ قَلْبِ شَيْحانَ فاتِـــكِ
وَيَجْعَلُ عَيْنَيْهِ رَبِيئَةَ قَلْبِـــــــــهِ.... إلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَخْلَقَصائـــــكِ
إذَا هَزَّهُ فِي عَظْمِ قرنَ تَهلَّلَـــــتْ.....نَوَاجِذُ أَفْوَاهِ الْمَنايَا الضَّوَاحِـــــكِ
يَرَى الْوَحْشَةَ الأُنْسَ الأَنِيسَ وَيَهْتدِي .... بِحَيْثُأَهتَدتأُمُّ النُّجُومِ الشَّوابِـــكِ"17.

يعكس لنا المكان في هذه الأبيات الصورة والحياة التي كان يعيشها الشاعر في الصحراء معبراً فيها عن وحشة الحياة التي عاشها، وقساوة الطبيعة التي فرضت عليه.

ب- البعد النفسي للمكان:

إن للمكان أبعاداً نفسية تؤثر في الذات البشرية سلباً وإيجاباً، وفقا لما يثيره هذا العنصر من مشاعر وأحاسيس؛ فهو المرآة العاكسة لذات الانسانية من أفعال وأقوال،أتخذ منه الشاعر ملاذاً للحرية والسكينةعاش فيه، وخلف فيه ذكريات وحوادث، كان يستذكرها كلما عاد ورجع إليه.فقد برز المكان في الشعر الجاهلي من خلال المعلقات التي أشار فيها أصحابها إلى بعض الأماكن ذات الصلة والعلاقة التي تربطهم بتلك الأماكن. ولعل من أهم الشعراء الذين تناول المكان في شعرهم نجد امرؤ القيس ، فقد كانت طبيعة الحياة وظروفها التي عاشها مصدراً مهماً من مصادر تكرار التجربة وإعادة الحياة فيها وذلك متمثل بتجربة المكان، وفي هذا المعنى يقول:

" قِفا نبكِ مِنْ ذِكرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ.... بِسقط اللِّوى بينَ الدَّخولِ فحَومَلِ
فتُوضِحَ فالمِقراةِ لَم يَعْفُ رَسْمهَا ..... لمْا نسجَتها مِنْ جَنوبٍ وَشَمـــأَلِ
تَرى بَعَر الأرآمِ فِي عَرَصَاتِـــها ..... وقيعَانِها كأنّهُ حَبُ فُلْفُـــــــلِ
كَأَنِّي غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُـــــوا ..... إلسمُراتِ الحَيِّ ناقِف حَنْظَلِ"18.

الشاعر في هذه الأبيات يخاطب صاحبيه، كانا يسيران معه طالباً منهما الوقوف والبكاء معه عند تذكر حبيباً فارقه ومنزلاً خرج منه، وذلك من خلال موضعيين (الدخول، وحومل). فلم يمح آثرها؛ لأنها كلما غطتها رياح الجنوب بالتراب، كشفته رياح الشمال عنها.

فالشاعر من خلال هذين البيتين يعيش حالة تركت في نفسيته حوادث كان لها الأثر الواضح على احاسيسه ومشاعره، مما جعله يعيش الذكريات حتى يجعل منها حقيقة ، يسترجع بها حالتهالوجدانية الغابرة في كل مكان مر به، فعوالمه وأماكنه متنوعة غنية بالمشاهد والأحاسيس. فعلاقة الشاعر بالمكان ذات أبعاد متعددة تستحضر الواقعي والخيالي معاً. وهذا ما جعل الشاعر ينتج شعره من المكان الذي كانت له فيه ذكريات ومواقف، جعلته يستحضر الماضي والحاضر. فأصبحت تلك الحوادث " تعبر عن نفسيته من خلال استدعائها من مخزون ذاكرته بحيث تشكل هذه في النهاية معادلا مساوقا لتجربته الشعرية" 19. كما أن ظهور وبروز ظاهرة الطلل في الأبيات يدل على ذلك العالَم القاسي المتباعد عالم الصحراء والترحال والتغيرات عالَم الوداع والحنين وفقدان الاستقرار في هذه البيئة.

إن تسامي النفس الإنسانية عند الشاعر– عن طريق بكاء الطلل– دل على المعاني التي يحملها المكان، كالوفاء ونحوه من المثل العليا، فأصبح وصف الاثار ليس إلا تشبث الشاعر بوجوده المكاني الذي أخذ في الارتحال، فجسد بذلك فكرة وثنائية البقاء والفناء.فخرجت بذلك الصورة من محتواه المجازي إلى العلم الواقعي؛ لأنبلاغة المشهد في هذا السياق أقرب ما تكونلذات مرجعية حقيقية.

يقول طرفة بن العبد:

" خَذُولُ تُراعي رَبْرَبًا بِخَمِيلـــــــــةٍ ..... تَنَاوَلُ أَطْرَافَ البَرِيرِ وتَرْتَـــدِي
وَتَبْسمُ عَنْأَلْمَي كَأَنَّ مُنَـــــــــوِّراً ..... تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعصُ لَهُ نَدي
سَقتهُإِياةُ الشَّمْسِ إلا لثَاتِـــــــــهِ ..... أُسفَّ وَلَمْ تَكْدِمْ عَلَيه بَإِثْمِـــــدِ
وَوَجْهُ كأَنَّالشَّمسِأَلْقَتُ رَدائَـــــهـَا ..... عَلَيْه نَقِيُّ اللَّونِ لَم يتَخَـــــــدَّدِ"20.

يخترق الشاعر في هذا المشهد التركيب البصري بحثاً عن امرأته المثاللليكونحضورها عنده يدل على حدث الرحيل العائد أساساً إلى المشهد الطللي، فهو يصف لنا الصورة الخارجية لحبيبته التي رسمها وشكلها في مخيلته، فانتقلت الصورة من حالة شكل ورسم يتصف بالجمود، إلى كائن حي يتلاعب بنفسية الشاعر. وهذا ما نجده كذلك في هذه الابيات:

" لخوْلَةَ أطلالُ بِبُرقةِ تَمْهـــــــدِ .....تَلُوحُ كبَاقي الوَشْمِ فِي ظاهِرِ اليدِ
وقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَليَّ مَطيَّهمْ.....يقولونَ: لا تَهْلِك أسَى وَتَجَـــــــلَّدِ
كَأَنَّ حُدُوجَ المالِكيَّة غُـــــــــدْوةً ..... خَلايا سَفينٍ بالنَّواصفِ مِـــنْدَدِ
عَدَوليَّةُ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابنِ يامنٍ .....يَجُورُ بِهَا المَلاَّحُ طَوراً وَيَـــــهتَدي
يَشُقُّ حَبابَ الماءِ حَيزُومُـــهَا .....كَمَا قَسَمَ التُّرابَالمُفايلُ باليَـــــــدِ"21.

يجسد الشاعر فكرة وظاهرة الطلل في هذه الأبيات، حيث ربط الطلل بالوشم الخالد وذلك من خلال نقشه على اليد، فأطلال خولة مرسومة كالوشم على اليد. هذه الأثار التي خلفت وتركة الهم والهروب من الواقع لدى الشاعر. فكان حضور خولة بين حضورٍ غائبٍ وحضورٍ حاضرٍ جسدته علاقة التماهي والتباعد لدى الشاعر.

يتضح لنا أن الصور الحسية والذهنية توزعت في هذه الأبيات، من خلال تبادل فعل التجسيد والتشخيص فضلاً عن كثرة الصور الرمزية، والمتمثلة في الطلل. فاستعملت الصورة هنا في صياغتها لخلق عالم يبث ويعبر فيه الشاعر عن آرائه وأفكاره، اتجاه الواقع. مما أضفى على الوجود قيمة جمالية. فتكونت الصورة في هذا المشهد على " أساس شعور وجداني غامض بغير شكل، بغير ملامح تناوله خيال المؤلف، فحدده وأعطاه شكله أي حوله إلى صورة تجسده"22.فالصورة الحسية تركيب عقلي يقوم بها الشاعر ليعيش في وسط تلك الأحاسيس المفعمة بالأمل والحياة، فهي تجسيم للأفكار والخواطر النفسية والمشاهد الطبيعية حسية كانت أم خيالية من أجل الإيحاء والتعبير.

كما نجد عنتر يصف الديار والأطلال ويسألها، ويطلب منها أن تتكلم، وتحدثه عن محبوبته ولكنها لا تجيب. يبقى واقفاً يذكر ارتحالها وانتقالها، ثم يجتبيالديار

ويذكر أن محبوبته قدابتعدت عن الديار، فليس له إلا أنيذكر رحيلها وما تركته في نفسه من أثر ولوعة.

يقول:

"هَلْ غَادَر الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ....أَم هَلْ عَرفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوهـــــمِ

أَعْيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لَمْ يَتــــكلَّمِ.....حَتَّى تَكلَّمَ كالأَصَمْ الأَعْجَـــــــمِ

وَلقَدْ جَستُبِهَا طَوِيـــــــلاً .....نَاقتِي أَشكُو إِلَى سُفِع رَوَاكدَ جُــثَّمِ

يَا دَارَ عَبْلةَ بالْجواءِ تَكلَّمي .....وَعِمِي صَباحاً دَارَ عَبْلةَ واسْلمِي" 23.

إن ما يلاحظ على هذه الابيات هو عبور الشاعر إلى الماضي الذي استحضره في الحاضر والاندماج فيه، فظهر الشوق إلى المكان الذي عاش فيه، وكانت فيه ذكريات ذات صلة وثيقة بتجارب الشعراء وحياتهم الخاصة والعامة؛ فالمكان هو البيئة التي عاش فيها الشاعر العربي بكل ما تشمل من مظاهر الطبيعة المتحركة والساكنة.ولعل حديث الشاعر في هذا المقام يشير إلى تقلب الحياة، والتغير الذي أصاب المكان وما حل به بعد رحيل أهله عنه، فهو حديث عن" بقايا الأشياء تلك البقايا التي لا تزال تحتفظ بالماضي ، وليس الشاعر إلا بقية شيء أتى عليه البعد والهجر والفراق مثلما أتى المطر والرياح والزمن على معالم المكان "24.

وخلاصة القول نجد أن المكان يحمل في طياته معان عميقة يتجاوز في كونه حيزاً يحمل شكلاً هندسي فقط، بل يعمل كوسيلة تقوم علي توليد الدلالات، والمعاني للتعبير عن الوجود الإنساني؛ فالإنسان من خلال المكان يتأمل غربته ويحن لماضيه متذكراً الأنس والألفة، وهذا ما عبر عنه الشاعر الجاهلي في اطلاله، التي وصف فيها حياته البدوية ، وتنقله من مكان إلى آخر.فقد وقف الكثير من الشعراء في قصائدهم على الاطلال والحياة المنبعثة منها، فكانت تدل على الهوية الحقيقية للشاعر الجاهلي، وعبرت عن انتمائه لشتى مناحي الحياة، وهذا ما أصبغ على المكان نوعاً من الجمالية أضفت عليه أبعاداً اجتماعية ونفسية كان لها الأثر الواضح في بلورة وتغيير مجريات الأحداث التي خاضها الشاعر الجاهلي. فأصبح المكان بذلك عاملًا لتحريك شاعرية الشاعر،

وذلك من خلال علاقة التلازم التي تسهم في تداعي الذكريات لدى الشاعر، وتعلقه بالمكان وما يحمله من ذكريات وأشجان.

الهوامش والإحالات:

1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن أحمد بن أبي القاسم بن حقبة بن منظور: لسان العرب، مج6 ج48، مادة (مكّن)، دار المعارف، القاهرة مصر، 1981، دط، ص 4250.

2- السيد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس مادة (مكن) ، مج 9، دار صادر بيروت، (د.ط) ، 1966.

3- العبيدي، حسن مجيد، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1998، ص9.

4- أرسطو طاليس : الطبيعة، ت إسحق بن حنين، ت ح عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ط2، ص 281.

5- محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، 2010. ط1، ص99.

6- محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)،ص104.

7-غاستون باشلار، جماليات المكان ،ترجمة: غالب هلسا، ط5، (بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 2000 ، 5.

8- سعيد محمد الفيومي : فلسفة المكان في المقدمة الطللية في الشعر الجاهليى مجلة الجامعة الإسلامية – سلسلة الدراسات الإنسانية- المجلد الخامس عشر العدد الثاني، ، 2008،ص 244.

9-مصطفى السقا: مختارات الشعر الجاهلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2007 ص425.

10- ريجيسبلاشير: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي،ترجمة: ابراهيم كيلاني، دار الفكر – دمشق، دط، ص35.

11- الشنفرى: الديوان تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت1996،ص33.

12- محمد عبد الرحيم: ديوان عبيد بن الأبرص، لبنان،ط2008،1،ص43.

13- محمد عبد الرحيم: ديوان عبيد بن الأبرص،ص46.

15-عبد الحق حمادي الهواس: المعلقات الرواية والتسمية، دار الفتح للدراسات والنشر، عمانط2003،1، ص 50.

16- ابن النحاس:شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الجزء الأول، دط،ص129.
17- عبد الرحمان المصطاوي: تأبط شراً- الديوان - دار المعرفة، بيروت – لبنان - ، ط1 2003، ص44.
18- امرئ القيس: ديوانه، دار صادر – بيروت- دط، ص29.
19- علي الغريب محمد الشناوي،الصورة الشعرية عند الأعمى التُطيلي،ط1،مكتبة الآداب- القاهرة- 2003، ص 59.
20- محمد عبد الرحيم: ديوان طرفة بن العبد، دار الراتب الجامعية، ط1، 2008، ص42.
21- محمد عبد الرحيم: ديوان طرفة بن العبد،ص41.
22- فاطمة عيسى جاسم،الصورة الفنية في مجموعة-أحد عشر كوكبا- امحموددرويش،مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب،دمشق، 2000، العدد394
23-مصطفى السقا: مختارات الشعر الجاهلي، ص 318.
24-جريدي سليم المنصوري: شاعرية المكان ، مطابع شركة دار العلم للطباعة جدة، 1992، ص9 .